آليات الحجاج في الخطاب الصوفي

الحكم العطائية نموذجا

The mechanisms of pilgrims in Sufi discourse
The gift judgment is a model.

عبد الغني زهاني[1]

طالب دكتوراه جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي

zehaniabg@gmail

تاريخ الوصول 04 /2020/10 القبول 2021/02/23 النشر علي الخط 2021/09/15
Received 04 /10/2020 Accepted 23/02/2021 Published online 15/09/2021

ملخص:

تعد الخطابات الصوفية من كنوز التراث الإسلامي التي مازالت تستقطب الباحثين والدارسين من مختلف تخصصاتهم إذ يتشابك فيها الديني بالفلسفي بالأدبي، ولئن أبان التاريخ الأدبي في بعض فتراته عن تجاهل لهذه النصوص فأنها ما تزال تبهرنا بقدرة أصحابها على تطويع اللغة للتعبير عن رؤاهم وتجاربهم العرفانية، يهدف هذا البحث إلى الكشف عن الآليات التداولية والبلاغية للحجاج التي وظفها المتصوفة في خطاباتهم، للدفاع عن طروحاتهم، وصد الهجمات التي كانت تطال منهجهم، إذ يسعى هذا البحث إلى رصد تلك الآليات في واحد من أهم الكتب الصوفية وأكثرها انتشارا، وهو (الحكم العطائية) .

الكلمات المفتاحية: الحجاج – الخطاب- الصوفي- الحكم -العطائية

Abstract:

Sufi discourses are among the treasures of the Islamic heritage that continues to attract researchers and scholars from their various specializations, as religious, philosophical and literary intertwine in them, and because literary history in some of its periods shows a disregard for these texts, it still dazzles us with the ability of their owners to adapt the language to express their visions and mystical experiences, This research aims to uncover the deliberative and rhetorical mechanisms of the Argumentation that the Sufis employed in their speeches, to defend their narratives, and to repel the attacks that affected their approach, as this research seeks to monitor these mechanisms in one of the most important and widespread Sufi books, which is (alhukm aleitayiya).

- **Keywords:** Sufi- discourses- Narration- Argumentation

[1] المؤلّف المرسل: عبد الغني زهاني البريد الإلكتروني: zehaniabg@gmail.com

1. مقدمة:

تعمل مقاصد المتلفظ على تحديد شكل الخطاب الذي يعبر به، كما تحدد الإستراتيجية التي يعتمدها لذلك، ويقتضي هذا أن يكون على وعي بكل وظائف اللغة التي تجمعه بالمتلقي وبالإمكانات التي تتيحها له لتبليغ مقاصده، ومن أهم الاستراتيجيات التي تتيح للمرسل تبليغ مقاصده ومعانيه إلى المرسل الإستراتيجية الحجاجية. والتي سيسعى هذا البحث إلى الكشف عن آلياتها في الخطاب الصوفي ومدى إسهامها في تفعيل العملية التواصلية .

2. آليات الحجاج في الخطاب الصوفي، الحكم العطائية نموذجا .

1.2 . في مفهوم الحجاج

يرد لفظ الحجاج في لسان العرب بمعنى البرهان ، يقول ابن منظور : (الحجة: البرهان، وقيل الحجة ما دوفع به عن الخصم، وقال الأزهري: الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، وهو رجل محاجج أي جدل، التحاج: التخاصم، وجمع حجة يحج وحجاج)[1]،وقال الشريف الجرجاني : الحجة ما دل به على صحة الدعوى، وقيل الحجة الدليل)[2]. ما يعني أن الحجاج هو كل ما يدعم به المتكلم كلامه ويدافع به عن رأيه وفكرته، فهو النزاع والخصام باستعانة بالدليل والبرهان .

وقد ورد الحجاج في القرآن الكريم بمعانيه المختلفة،فقد جاء بلفظ حجاج وجدل وبرهان، ونلمسه في آيات كثيرة، ونأخذ قوله تعالى :(**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**)[3]، وقد ورد في مواضع عدة بمعنى الجدال والمراء والمخاصمة .

تتعدد تعريفات الحجاج وتختلف تبعا للمجال الذي يستخدم فيه، فهناك المفاهيم الفلسفية والمنطقية والقانونية،كما أن له مفاهيم بلاغية وتداولية فقد عرف مصطلح الحجاج تطورات كثيرة على الصعيدين العربي والغربي، في مجال الفلسفة والدراسات النقدية .

لقد ظهرت عناية العرب بالحجاج منذ العصر الإسلامي، ممثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية، ومنها امتد تأثيره إلى علوم الدين وعلوم اللغة والفلسفة، فكانت المناظرات والمحاورات بين أصحاب الملل والمذاهب مسرحا له، ولذا اهتم البلاغيون العرب بالحجاج وكثرت فيه مصنفاتهم .

فأبو هلال العسكري في كتاب الصناعتين يؤكد على الوظيفة الحجاجية للشعر في قوله : (وهو الذي يملك ما تعطف به القلوب النافرة ويؤنس القلوب المستوحشة وتلين به العريكة الأبية المستعصية ويبلغ به الحاجة وتقام به الحجة)[4]، وللجاحظ إسهام كبير من

---

[1] – ابن منظور،جمال الدين، لسان العرب،ط1،مج02، دار صادر . بيروت، لبنان، دت،ص259.

[2] – الجرجاني علي بن محمد، التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، ج م ع، دط، دت،، ص:82.

[3] – سورة البقرة:258

[4] – أبو هلال العسكري،كتاب الصناعتين، تح:علي محمد البجاوي ومحمد أبوالفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ط1،2006،ص.49

خلال كتابه البيان والتبيين. وكذلك أبو الوليد الباجي ففي كتابه (المنهاج في ترتيب الحجاج) يعد الحجاج علما من أعظم العلوم، بالإضافة إلى جهد ابن خلدون في مقدمته [1]، وغيرهم كثير، وهو ما يدل على اهتمام العرب المبكر بالحجاج وأصوله .

أما في الغرب فقد نشطت الدراسات المعاصرة عند ثلة من الباحثين، الذين استندوا على الدرس الحجاج الأرسطي، الذي يعد الانطلاقة الأساسية للحجاج، والأسماء كثيرة في هذا المجال ولعل أهمها البلجيكي شاييم برلمان وتيتيكاه في كتابهما (البلاغة الجديدة، مصنف في الحجاج)[2]، وكذلك " ديكرو وأنسكومبر" في التداوليات المدمجة، " وميشال مايير " في نظرية المساءلة[3].

كما أن ثمة مشاريع حجاجية عربية حديثة لافتة منها : طه عبد الرحمن في كتابيه (في أصول الحوار وتجديد علم الكلام) و(واللسان والميزان)، وأبوبكر عزاوي في كتابه (اللغة والحجاج) ومقالات أخرى له[4]. بإضافة إلى أعمال أخرى في هذا المجال .

2.2 مقام الحجاج في الخطاب الصوفي :

المقام في الخطاب من أهم عناصر الإطار التلفظي، و معناه مراعاة الكلام لمقتضى الحال؛ مراعاة مقاصد المتلفظ وحال المتلقي، فهو جملة الشروط التي يجب أن تتوفر في الكلام ليتحقق له النجاح التداولي، على مختلف الأصعدة . إذ يفترض في المرسل أن يكون ملما بأحوال المتلقي النفسية والاجتماعية والمعرفية، وكل الظروف التي تحيط بعملية التلفظ ليتمكن من التأثير عليه وإقناعه[5] . فالمقام مهم لتأطير العملية الحجاجية وتبليغها لمقاصد المتكلم، ولقد بدأ الاهتمام بأهمية المقام في الدرس البلاغي العربي القديم . فالجاحظ (ت 255هـ) يقول بأنه: (ينبغي على المتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدارَ الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات)[6]. وإلى ذلك ذهب أقطاب الدرس البلاغي الغربي المعاصر بيرلمان أيضا يرى يجب على الخطيب (إذا أراد أن يكون خطابه منسجماً مع مستوى مخاطبيه أن يفهم أولاً المقام المتكلم فيه، ثم أحوال السّامعين ومستوياتهم المعرفية والإدراكيّة، لأنّ بناء الحِجاج مرتبط أساساً بتنوع المعنيين به)[7]، ويتوسع آخرون في تحديد المقام ليشمل عناصر أخرى تتعلق بالخطاب، فقد ورد تعريف أشمل للسياق في القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان:(مقام الخطاب مجموع الظروف التي نشأ التعبير في وسطها (الكتابي أوالشفاهي). ويجب أن نفهم من هذا المحيط المادي والاجتماعي الذي يأخذ الظرف فيه مكانه، والصورة التي تكون للمتخاطبين عنه، وهوية هؤلاء، والفكرة التي يصطنعها كل واحد

---

[1] – عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ط1، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، 2004، ص449.

[2] – ينظر : عبد الله صولة : الحجاج أطره ومنطلقاته من خلال مصنف في الحجاج الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتكاه، ص 299، ورد ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطوإلى اليوم .

[3] – إستراتيجيات الخطاب ، ص 454.

[4] – م ن ، ص522.

[5] – ينظر : محمد العمري في بلاغة الخطاب الإقناعي . ط2، أفريقيا الشرق، المغرب، لبنان، 2002، ص31

[6] – الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، تح: عبد السلام محمد هارون، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط،7 138،.139، ص ص199

[7] – محمد سالم ولد محمد الأمين مجلة عالم الفكر (مفهوم الحجاج عن بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة .. المجلد 28 / العدد 3، يناير – مارس 2000. ص 64.

عن الآخر (بما في ذلك التمثيل الذي يمتلكه كل واحد عما يفكر به الآخر)، والأحداث التي سبقت التعبير (لاسيما العلاقات التي يمتلكها المتخاطبون من قبل، وتبادلات الكلام حيث يحشر التعبير المعني نفسه). وإننا لنعرف التداولية غالبا بوصفها دراسة لهيمنة المقام على معنى العبارة.)[1] .

ولا نريد الإسهاب في الحديث النظري عن المقام، والذي اهتم به جل الدارسين للبلاغة ولتداولية الخطاب ونوهوا بدوره الفاعل في الإقناع .فالعوامل اللغوية بمستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية، غير كافية لتحديد دلالة الخطاب بمعزل عن المقام ، والملابسات الاجتماعية والنفسية المرافقة لعملية التلفظ، نلمس هذا الوعي بالمقام في الكثير من الخطابات والمقولات الصوفية، ودعوتهم إلى إخفاء بعض علومهم لأنها قد تصدم العامة الذين لا يفهمونها، بقول ابن عربي في هذا السياق (وهذا الفن من الكشف والعلم يجب ستره عن أكثر الخلق لما فيه من العلو فغوره بعيد، والتلف فيه قريب فإن من لا معرفة له بالحقائق ولا بامتداد الرقائق ويقف على هذا المشهد من لسان صاحبه المتحقق به وهولم يذقه ربما قال: أنا من أهوى ومن أهوى أنا فلهذا نستره ونكتمه)[2]. ومراعاة لحال المتلقين كانت تتباين الخطابات الصوفية بساطة وعمقا، ولا شك أن تلك الظروف المحيطة بالعملية التواصلية ستكون أهم وأخطر حين يتعلق الأمر بالإقناع وليس مجرد الإخبار .

ومما حرص المتصوفة عليه وهم يخوضون في الدفاع عن التصوف لما طال أهله من رمي بالضلال وإفساد الدين، تناول سير أعلام المتصوفة البارزين ، وهوما فعله كثيرون على غرار القشيري في رسالته الشهيرة، حيث ترجم لعشرات رجال التصوف وساق الكثير من أقوالهم التي تشي بورعهم وتقواهم وصلاحهم، بالإضافة إلى جهود السلمي والطوسي وغيرهما، لقد كانت لتلك المؤلفات دور هام في تعزيز جبهة التصوف بصورة عامة والحجاج الصوفي خاصة، (اعلموا رحمكم الله أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد صانوا بها عقائدهم عن البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل)[3]،

فقد بنيت الرسالة على خلفية حجاجية رمى صاحبها من ورائها إلى الذوذ عن التصوف وأهله، ذلك أن أكثر ما يوهن أي خطاب ويوهنه الطعن في مصداقية صاحبه، والأكيد أيضا الطعن في الجماعة التي يمثلها والثقافة التي يستقي منها مبادئه وقيمه، ولقد عد أرسطوصدق الخطيب وصلاحه وسمته مما يسهل إقناع المستمعين بكلامه (والصالحون هم المصدقون سريعا بالأكثر في جميع الأمور الظاهرة)[4]، فلقد قام القشيري ومن نحا نحوه في هذا الصنف من التآليف بأن أتاح للمتصوفة أن يتكلموا عبر رسالته ويقولوا كلماتهم تلك في التوحيد والورع والإخلاص، ليظهر مدى تمسكهم بالدين وبعدهم عن البدع والضلال، ولا شك أن هذا شكل قوة ودعما حجاجيا للخطابات الصوفية في عصره وبعد عصره، إذ شكل مصدرا مهما للحجج والشواهد التي يعتمد عليها في الدفاع عن التصوف .

---

[1] – أزوالد ديكرو، جان ماري سشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان (طبعة منقحة)، ترجمة : د. منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، المغرب، لبنان، ط2، 2007 م ص: 677.

[2] – ابن عربي محي الدين، رسائل ابن عربي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2001.، ص 17 و18.

[3] – عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2001.، ص 11.

[4] – أرسطو، الخطابة، ترجمة قديمة، تحقيق : عبد الرحمن بدوي،وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، لبنان، 1979. ص10.

رغم أن الخطاب الصوفي في كثير من مراحله كان معزولا تداوليا لأسباب كثيرة، فإن المتلقي كان حاضرا في ذهن المرسل الصوفي، وكان دائم السعي للتأثير فيه وإقناعه بأفكاره وطروحاته، وقد استغل المرسل الصوفي كل كفاءاته اللغوية والتداولية، وخاض في فنون القول الأكثر تقاطعا مع الثقافة السائدة كالمواعظ والوصايا والرسائل، كما أن التراث الإسلامي الذي يقوم عليه التصوف شكل لهم معينا حجاجيا لا ينضب، فاستخدموا القرآن الكريم والأحاديث النبوية وأقوال الصحابة والصالحين في ما خاضوه من ضروب القول.

تعد الحكم العطائية نسبة إلى مؤلفها ابن عطاء الله السكندري (709هـ) واحدا من أجل وأهم الكتب الصوفية وأكثرها انتشارا، يضم 264 حكمة تدور في مجملها حول التصوف ومعانيه وتقويم السلوك وتزكية النفس، وتعد نموذجا للتصوف المعتدل ولذا راجت في البيئات غير الصوفية وكثر شراحها.

3.2 آليات الحجاج التداولي في الحكم :

3.2.. الحجاج التداولي"

الخطاب الصوفي عموما يهدف إلى إقناع المتلقي والتأثير فيه واستمالته إلى النهج الصوفي،فهو(خطاب حجاجي في حد ذاته،ذلك أن المخاطب لا يسرد حادثة أوحكاية إلا وقصد من خلالها تحقيق غاية)[1]. والغاية هي السعي إلى إذعان المتلقي وإقناعه بالطريق الصوفي، كما يعمد المتصوفة إلى الحجاج في الكتب التي تذود عن التصوف وترد عنه التهم التي يُرمى بها، نذكر في هذا الباب الرسالة القشيرية التي أعلن فيها مؤلِفها أن من أسباب تأليفه للكتاب الغيرةَ(على هذه الطريقة أن يذكر أهلها بسوء،أو يجد مخالف لثلبهم مساغا، إذ البلوى في هذه الديار بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرين شديدة)[2].

ولأنّ كلّ الفنون الأدبية التي خاضها المتصوفة كانت غايتها التأثير في المتلقي وإقناعه بالنهج الصوفي كان الحجاج سمة ظاهرة في الخطاب الصوفي، وكان محققا لوظيفة أساسية من وظائف اللغة وهي الوظيفة الحجاجية فضلا عن أن اللغة (تحمل بصفة ذاتية وجوهرية intrinséque وظيفة حجاجية)[3].

في الحكم العطائية تنوّع حجاجي، ومنه الحجاج التداولي بمختلف آلياته.

–القياس الخطابي:

هوآلية من آليات الاستدلال، ويقوم على الاحتمال من ناحية، والإضمار من ناحية أخرى فهو(قياس مضمر يقوم على الاحتمالات)[4]، ويقوم على الرأي وعلى مبادئ العقل، وقد (قدم أرسطو في كتابة الخطابة ثمانية وعشرين حالة من البرهنة بالقياس المضمر وهي الأقيسة الاستدلالية، وأربعا من الأقيسة التفنيدية)[5]، ومبادئه عديدة ؛ منها:

---

[1] – يمينة تابتي:الحجاج في رسائل ابن عباد الرندي،مجلة الخطاب،جامعة مولود معمري،تيزي وزو،الجزائر، العدد الثاني،ماي 2007،ص 296و297.

[2] – الرسالة القشيرية،ص 09.

[3] – أبوبكر العزاوي:اللغة والحجاج،ط1،العمدة في الطبع،المغرب،2006.ص14.

[4] – عز الدين الناجح : مقاربة تداولية لحكمة حجاجية،مجلة الخطاب،مخبر تحليل الخطاب،جامعة مولود معمري، تيزي وزو،الجزائر،العدد03، 2008،ص36.

[5] – محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص72.

أ - التعارض و التضاد :

في الحكمة السادسة والثمانين لابن عطاء الله السكندري :(إذا أردت أن يكون لك عزّ لا يفنى، فلا تستعزن بعز يفنى)[1]، فالسبب الذي قاد إلى نتيجة خاطئة أوغير مرجوة فضده يقود إلى النتيجة الصادقة والمرجوة، وهذا لا يتضمن قولا مضمرا من قبيل: من استعز بفان كان عزه فانيا الدنيا فانية إذن من استعز بالدنيا فعزه فان.

ب - القياس بالخلف :

(وهوإثبات الأمر ببطلان نقيضه)[2]، وهو من أشهر القياس الخطابي ، يقول ابن عطاء الله السكندري :(من علامات النجح في النهايات،الرجوع إلى الله في البدايات)[3]، فمن لم يرجع إلى الله في بدايته، فلا نجاح له في النهاية .وبهذا المعنى وهذا البناء تأتي الحكمة السابعة والعشرون:(من أشرقت بدايته، أشرقت نهايته).

- **التقسيم المقصي :**

وفي هذا الآلية من القياس يعمد المرسل (إلى الإيحاء والإحاطة بالموضوع من كل جوانبه لصرف نظر المستمع عن البحث والتقصي)[4]، فيستبق أي فكرة أو تفصيل قد يتبادر إلى ذهن المتلقي، مما يوحي بتمكن المرسل من موضوعه وجزئياته، وهذا له فاعلية حجاجية من شأنها أن تفحم الخصم، وتجعل المتلقي يسارع إلى التصديق والإذعان .

في قول ابن عطاء الله السكندري : (طلبك منه اتهام له، وطلبك له غيبة منك عنه، وطلبك لغيره لقلة حيائك منه، وطلبك من غيره لوجود بعدك عنه)[5]، وكذلك يظهر في قوله :(النور له الكشف والبصيرة لها الحكم والقلب له الإقبال والإدبار)[6] .

لقد جاء جل هذه المقولات في سياق الوعظ والإرشاد وهداية السالك الصوفي وغيره إلى الطريق القويم، وإلى بلوغ المراتب العلى التي تجعل المؤمن قريبا من ربه . ولقد حرص فيها ابن عطاء على التوضيح والتدقيق، والإحاطة بجوانب الموضوع، ولوعي المرسل فيها بالمتلقي وأحواله لم يترك له مجالا للتساؤل أو الريبة .

- **الشاهد :**

ويكون بتوظيف الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وغيرها فهي (حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها ومن مصادقة الناس عليها وتواترها)[7]،ونجد العديد من الحكم التي تأتي مدعومة بآيات قرآنية بغية إذعان المتلقي واعتراضه،فالنص القرآني (لا أحد ينازع في كونه ينزل أعلى مرتبة في الحجية)[8] وهو ذو فاعلية حجاجية لا تضاهى، ولا يمكن الاعتراض عليها، لقد كان الاستشهاد

---

[1] – ابن عطاء الله السكندري،الحكم العطائية، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط1988،1، القاهرة، ج م ع، ص61.

[2] – في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص77.

[3] – الحكم العطائية،ص51.

[4] – في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص80.

[5] – الحكم العطائية ، ص50.

[6] – م ن،ص56.

[7] – بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 90.

[8] – طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أوالتكوثر العقلي،ط1،المركز الثقافي العربي،بيروت لبنان،1998.،ص 398.

إستراتيجية اعتمدها المتصوفة في كل خطاباتهم، سعيا منهم لتأصيل منهجهم، والتأكيد منابع نهجهم، فلقد أدركوا قيمة الاستشهاد في التأثير على المتلقي، (كما أنه يلعب دورا في إحضار شخص المصرح بالقول كشاهد)[1] ، ومن ذلك: هذه الحكمة التي اشتملت على شاهدين من القرآن الكريم والحديث الشريف:

(لا ترحل من كون إلى كون، فتكون كحمار الرحى يسير والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون؛ و(**أن إلى ربك المنتهى**).[2]

يعتبر الاستشهاد من أقوى العناصر الحجاجية التي تحقق مقاصد المتلفظ، لفاعليته التداولية، إذ يدخل في القيم المشتركة بين طرفي العملية التواصلية، وعنصرا موحدا بين الأنساق الثقافية التي تداخلت في الحياة العباسية بشكل خاص، من فلاسفة ومتكلمين وغيرهم .

3.2. - بنية الحجاج اللغوي :

- الأفعال اللغوية :

إنّ الأفعال اللغوية تلك التي لا نحكم عليها بالصدق أو الكذب، وهي في اللغة العربية الأفعال الإنشائية، فهي أفعال إنجازية، أي أنّ المتلفظ بالفعل ينجز فعلا، بهذا تصدق عبارة أوستين المعنونة لكتابه:(عندما نقول فإننا نفعل Quand dire- c'est faire)[3] . وسماها الأفعال الإنجازية (les performatifs)، (ويتعلق الأمر هنا بالأقوال الموجهة لتحديد وتعيين موافق المتكلم)[4]. وهي أفعال الأمر والنهي والنداء والاستفهام .

حجية أفعال الكلام تكمن في أنها تعمل على تغيير موقف المرسل إليه وتوجيهه، فالحجة متضمنة في القول (الذي يقدمه المتكلم على أنه يخدم ويؤدي إلى عنصر دلالي آخر، والذي يصيرها حجة أو يمنحها طبيعتها الحجاجية هو السياق)[5].

سنحاول فيما يلي الكشف عن حجاجية هذه الأفعال من خلال مجموعة من الحكم .

–الأمر:

الأمر من الأفعال الإنجازية يهدف إلى توجيه المتلقي وتعديل سلوكه، وله فاعلية حجاجية (فصيغة الأمر من الإنشاء الطلبي والحجاج في صلبه طلب صريح أو ضمني بتسليم المتقبل)[6]،فهذه الصيغة بما تقوم به من توجيه – معتمدة على سلطة معينة– تحقق الغاية التي تهدف إليها كل بنية حجاجية وهي إذعان المتلقي .

ولإسناد القوة الإنجازية الملائمة إلى هذا الضرب من التراكيب يجب إقامة العلاقة بين القالب النحوي والقالب الاجتماعي والقالب المنطقي على أساس أن هذه القوالب الثلاثة تتفاعل)[1]، فقد يكون الأمر في مثل هذه السياقات على سبيل الالتماس، ولكنه يتفاعل في ذهن المتكلم مع الحمولة الحجاجية للخطاب، مما يعطيها دفعا قويا .

---

[1] – عمر بلخير، الوظائف التداولية والحجاجية للاستشهاد، مجلة التبيين، العدد 23، الجزائر، 2004.ص71.

[2] – الحكم العطائية، ص 53.

[3] – أبوبكر العزاوي، اللغة والحجاج،ص117.

[4] – م ن، ص 116.

[5] – عز الدين الناجح:الحجاج في سورة الإخلاص،مجلة الخطاب الصوفي في اللغة والأدب،جامعة الجزائر،العدد01، 2007،ص415.

[6] – نفسه،ص127.

ويقول السكندري في حكمة أخرى : (إذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس، فإنه لا يثقل عليها إلا الحق)[2]. إنّ حجاجية فعل الأمر(انظر) تكمن في كونه يعضد موقف المرسل في أن دعواه صادقة، وأن المرسل سيتوصل إلى ذلك بالنظر بنفسه فيتحقق الإقناع أوالاقتناع . وبشكل عام نجد أن لفعل الأمر فاعلية حجاجية واضحة، إذ يجمع فيه المتلفظ بين سلطة التوجيه والإقناع، مما يشكل ضغطا على المتلقي يفضي إلى اقتناعه.

-النهي:

وهو من الأفعال الحجاجية، يضطلع بما يضطلع به فعل الأمر في التوجيه وكذلك في الحجاج، فالنهي حين لا يكون على سبيل الاستعلاء، ويقترن ببنية حجاجية يزيد في قوتها وحجيتها .

وقال ابن عطاء الله السكندري :(لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله)[3]. إن صيغة النهي في هذا السياق تكمن حجيتها في أنها جاءت للنصح ممن خبر الناس والحياة، فجملة صلة الموصول التي جاءت بعد اسمها تقوم مقام الحجة الصريحة .ويمكن تأويلها هكذا:لا تصحب هذا لأن حاله لا ينهضك .ومقاله لا يدلك على الله . فنجد دائما أن صيغتي الأمر والنهي تقرن بالحجة أوالعلة التي كانت وراء ذلك الفعل، أي أن المرسل لا يعول على أية السلطة ويعتمد في خطابة على إستراتيجية حجاجية.

-الاستفهام:

الاستفهام عندما يخرج عن معناه الأصلي يفيد معان كثيرة (ويستدل على المعنى المراد بالقرائن القولية والحالية)[4]، ونقصد ذلك النمط من الاستفهام الذي (يستلزم تأويل القول المراد تحليله انطلاقا من قيمته الحجاجية على أنه يتجه وجهة القول)[5]، إذ يعمل الاستفهام على زيادة القوة الحجاجية للملفوظ، فيلفت نظر المتلقي إلى الحجج التي كانت غائبة عن فكره، كما في قول ابن عطاء :(كيف يشرق قلب صورة الأكوان منطبعة فيه ؟ أم كيف يرحل إلى الله، وهو مكبل بشهواته، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله، وهو لم يتطهر من جنباته، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته)[6]. فبهذا الاستفهام يعرض السكندري شروط الاتصال بالله وإشراق القلب بنور الحق لتتجلى له دقائق الأسرار، وقد عمل على دعوة المتلقي إلى النظر في الحجج التي يعرضها على صدق دعواه من خلال استخدامه لـ (كيف)، التي تحرض المتلقي على التفكير في الحجج، وتكمن حجاجيته في الجواب الضمني على هذه المتواليات الاستفهامية، فللسؤال وللجواب حجية (بفعل دخولها في العلاقة الحجاجية)[7].

---

[1] – أحمد المتوكل، نحوآفاق جديدة في نظرية النحوالوظيفي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة حمد الخامس، المغرب، 1993.ص 46.

[2] – الحكم العطائية،ص77.

[3] – الحكطم العطائية، ص 54.

[4] – عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني،البلاغة العربية ، أسسها وعلومها وفنونها، ط1، دار القلم، سوريا، الدار الشامية، لبنان،ج1،19961، ص258.

[5] – أبوبكر العزاوي :الخطاب والحجاج،ط1،مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، بيروت،لبنان، 2010،ص57و58.

[6] – الحكم العطائية،ص48.

[7] –أبوبكر العزاوي، الخطاب والحجاج،ص 58.

فالاستفهام يعمل على استدعاء ذهن المتلقي ليواجه الحجج التي يعرضها المرسل .إذ يطمح إلى أن يواجه المتلقي ما يعرضه عليه من حجج ويزنها بعقله ويتخذ منها موقفا .

فالاستفهام هنا يأتي مظهرا للحجة متصدرا لها، ليجعلها في صميم اهتمام المتلقي، فالحجاج بالاستفهام يعد من أقوى أنواع الحجاج، فهو يدعو المتلقي إلى المشاركة في بناء المعنى بل في بناء الحجة ذاتها، ذلك أنّ (الجملة الاستفهامية هي جملة غير كاملة منطقيا)[1]، ففي هذا الاستفهام الذي يخرج عن استخدامه الأصلي، ويدخل في بنية حجاجية لا يعطي للمتلقي الخيار بين جوابين أوأكثر، وإنما يملي عليه الإجابة التي يقتضيها ذلك الاستفهام [2].

ب-الروابط الحجاجية والعوامل الحجاجية :

تشتمل اللغة العربية شأنها شأن غيرها من اللغات الطبيعية على مجموعة من الروابط الحجاجية من قبيل (بل، لكن، لأنّ...)، فهذه الروابط(هي المؤشر الأساسي والبارز، وهي الدليل القاطع على أنّ الحجاج مؤشر له في بنية اللغة نفسها)[3]، فهي تعمل على إحكام الحجاج واتساق بنيته،بالربط بين حجتين أو بين الحجة والنتيجة و(وتسند لكل قول دورا محددا داخل الإستراتيجية الحجاجية العامة)[4]، إذ تضطلع بدور تنظيمي وتنسيقي داخل البنية الحجاجية .

سنحاول من خلال مجموعة من النماذج أن نبين كيف تشتغل هذه الروابط والعوامل داخل البنية الحجاجية، في مجموعة من الخطابات الصوفية .

- لأنّ:

وهي من أدوات التعليل التي تتقدم فيها النتيجة على الحجة، إذ تأتي جوابا على (سؤال ملفوظ به أو مفترض)[5]، يستبق فيها المرسل تساؤل المتلقي فيبادر للتعليل والتبرير.

نجدها في الحكمة الواحدة والسبعين لابن عطاء الله السكندري:(إنما جعل الدار الآخرة محلا لجزاء عباده المؤمنين لأنّ هذه الدار لا تسع ما يريد أن يعطيهم ولأنّه أجل أقدارهم عن أن يجازيهم في دار لا بقاء لها)[6].

النتيجة: جعل الدار الآخرة محلا لجزاء عباده المؤمنين.

الرابط: لأنّ.

الحجة 1:هذه الدار لا تسع ما يريد أن يعطيهم.

الرابط: لأنّ.

الحجة2: أجل أقدارهم عن أن يجازيهم في دار لا بقاء لها.

---

[1] - ابتسام بن خراف، الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة، رسالة دكتوراهجامعة الحاج لخضر باتنة، 2010،ص 303.

[2] - *Mariana TUTESCU, L'*Argumentation Introduction à l'étude du discoursx ,p30.

[3] -أبوبكر العزاوي، اللغة والحجاج،ص55.

[4] - نفسه،ص25.

[5] -إستراتيجيات الخطاب ، ص 478.

[6] - الحكم العطائية، ص57.

نجد أن الرابط (لأنّ) قد تكرر للربط بين الحجة والنتيجة وللربط بين الحجتين. فقد اعتمد ابن عطاء (**لأنّ**) لتعليل حكمة الله تعالى في جعله جزاء عباده المؤمنين في الدار الآخرة لأنها دار الخلود وهي حجة مضمرة المصرح بها .

– اللام:

وهي لام التعليل أو(لام كي، ويكون ما بعدها علة لما قبلها، ويكون حصول ما قبلها سابقا على حصول ما بعدها)[1]، يستعملها المرسل في بناء حجاجه، يقول السكندري : (تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال)[2]

النتيجة: تنوعت أجناس الأعمال.

الرابط :اللام.

الحجة: تنوع واردات الأحوال.

– الواو:

وتستخدم للربط بين الحجج (يربط بيم وحدتين دلاليتين أوأكثر، في إطار إستراتيجية حجاجية واحدة)[3] ، وهي روابط التساوق الحجاجي إذ (تنهض بوظيفة الجمع بين حكمين متطابقين عكس "بل" مثلا التي تنفي ما يسبقها وتثبت ما يلحقها .)[4] فتتعاقب بواسطتها الحجج دون ترتيب غالبا، (بحيث تقوي كل حجة الحجة الأخرى ..)[5]. في حكمة لابن عطاء الله السكندري: (من علامات اتباع الهوى المسارعة إلى النوافل والخيرات، والتكاسل عن القيام بالواجبات)[6]

النتيجة: من علامات اتباع الهوى

الحجة1: المسارعة إلى النوافل والخيرات.

الرابط: الواو.

الحجة2: التكاسل عن القيام بالواجبات.

الواو في هذه الحكمة جاءت للتعقيب والترتيب تكون الحجة التي بعدها(التكاسل عن القيام بالواجبات) هي الأعلى في السلم الحجاجي والأقوى إذ أنّ المسارعة إلى النوافل تعتبر حجة ضعيفة على اتباع الهوى، بل إنها لوحدها لا تعتبر حجة إلا باقترانها مع الحجة الأولى بواسطة الواو.

– لكن: من الروابط الحجاجية التي يسوقها المرسل للربط بين حجتين تقودان إلى نتيجتين متعارضتين بحيث تكون الحجة الأقوى والمعتمدة هي التي تأتي بعد **لكن**.وهي (تستخدم (للحجاج والإبطال)[7]

---

[1] – علي توفيق أحمد:المعجم الوافي في أدوات النحوالعربي،ط2، دار الأمل،إربد،الأردن،1988،ص 260.

[2] – الحكم العطائية،ص47.

[3] – اللغة والحجاج، ص 29.

[4] –عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية ط1، مكتلة علاء الدين، صفاقس، تزنس، 2011.ص 153.

[5] – استراتيجيات الخطاب،ص472.

[6] – الحكم العطائية،ص77.

[7] – أبوبكر العزاوي، الحجاج واللغة، ص 57.

نجد ذلك في قول ابن عطاء الله السكندري :(لو أنك لا تصل إلا بعد فناء مساويك، ومحو دعاويك – لم تصل إليه أبدا، ولكن إذا أردت أن يوصلك إليه – غطى وصفك بوصفه، ونعمتك بنعمته فوصلك إليه: بما منه إليك، لا بما منك إليه)[1].

لقد عملت (**لكن**) هنا على توجيه الحجاج والخطاب بصفة عامة ولفت نظر المتلقي إلى أمر يعتقد المرسل أنه غافل عنه ولا يضعه في اعتباره . وقد أراد بذلك لفت نظر المؤمن والصوفي بشكل خاص إلى أنه لا يصل إلى الله بعمله واجتهاده، ولكنه يصل بمنه سبحانه وتعالى عليه وفضله.

– بل:

هذا الرابط يستعمل للحجاج، وإذا وقعت بعده جملة فيفيد الإضراب إذ هو يثبت الحكم لما بعدها وينفيه عما قبله[2]. وهي أيضا تستخدم للحجاج والإبطال.

النحاة العرب مجمعون تقريبا على أن "بل" للإضراب إما الإضراب الإبطالي أو الإضراب الانتقالي . وفي كلتا الحالتين تكون بل رابطة بين حجتين)[3]

مثال: (ما العارف من إذا أشار – وجد الحق أقرب إليه، بل العارف من لا إشارة له؛ لفنائه في وجوده، وانطوائه في شهوده)[4].

نتيجة1: ما العارف من إذا أشار.

الحجة1:وجد الحق أقرب إليه من إشارته.

الرابط:بل

نتيجة2:العارف من لا أشارة له.

الحجة2: لفنائه في وجوده، وانطوائه في شهوده.

فالرابط (بل) يقيم علاقة حجاجية بين حجتين هي علاقة تعارض، وتكون الحجة التي بعده هي الأقوى .

– إذا:

وهي إذا الشرطية والتي كثيرا ما يقترن جوابها بالفاء، ويكمن دور أسلوب الشرط في أنه يعمل على تماسك البنية الحجاجية ويعطيها قوة،، غذ يفترض المتلفظ أن حصول الجواب متوقف حصوله على تحقق الشرط ، وهو ما من شأنه أن يعطي فاعلية أكبر للحجاج، ونجده في كثير من الخطابات من ذلك :

قول ابن عطاء الله السكندري : (إذا فتح لك باب التعرف، فلا تبال معها إن قل عملك، فإنه ما فتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك، ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك، والأعمال التي أنت مهديها إليه! وأين ما تهديه إليه – مما هو مورده عليك)[5].

نرى استخدامها في بناء النتيجة من خلال أسلوب الشرط قبل تقديم الحجة "ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك".

---

[1] – الحكم العطائية،ص67.

[2] – المعجم الوافي في أدوات النحوالعربي،ص115.

[3] – العوامل الحجاجية في اللغة العربية، ص 140.

[4] – الحكم العطائية،ص 59.

[5] – الحكم العطائية،ص47.

حيث تلازمت النتيجة الكائنة في جواب الشرط، بتحقق فعل الشرط، وارتبطا. فأسلوب الشرط يحث المتلقي على الاستنتاج بالربط بين أجزاء الكلام .

3.3.2. بنية الحجاج البلاغي:

للبلاغة أثرها الفاعل في الحجاج، لما لها من تأثير على المتلقي، إذ تساهم بقدر كبير في إقناعه وإذعانه، وتشاغل البلاغة في البنى الحجاجية من خلال علومها الثلاثة ؛ المعاني والبيان والبديع، وكل هذه العلوم تشترك في اهتمامها بالمتلقي وتأثير الكلام فيه، وكيف يكون للكلام دوره في تغيير موقف المتلقي من الملفوظ.

ولذا سنحاول فيما يلي البحث عن تجلي البلاغة في البنى الحجاجية التي عمد إليها المتصوفة في عرض أفكارهم .

كما سبقت الإشارة إلى أن الحجاج من وظائف اللغة، وأنه (مسجل في بنية اللغة ذاتها،وليس مرتبطا بالمحتوى الخبري للأقوال ولا بمعطيات بلاغية مقامية)[1]، لدى تكون تجلياته في الخطاب كثيرة.

أ–التشبيه:

تكمن حجاجية التشبيه في ان المتلفظ يدعي أن شيئا شابه شيئا أخر في صفة أواكثر، ويسعى من خلال ملفوظه أن يقنع المتلقي بصدق دعواه، مع إمكانية اعتراض هذا الأخير، وهو أحد أهم آليات الحجاج البلاغي، لأنه يعمل على تجسيد المعاني وإبرازها من خلال ربطها بالظاهر والملموس، فبالإضافة إلى وظيفته الجمالية فإنه يرفع من أقدار المعاني، كما قال الجرجاني، لقدرته على التأثير في النفوس، وإذا استخدم في الحجاج (كان برهانه أنور وسلطانه أقهر وبيانه أبهر) [2]، ذلك أن للتشبيه استعمالات كثيرة وفق ما يقتضيه السياق أو المقام، وهو حين يرد في سياق الاحتجاج يعمل على تقوية الحجة لأثره القوي على النفوس .

يرجع اختيار التشبيه في الكلام لدواع عدة منها :

(استخدام الأسلوب غير المباشر للتعبير عن المراد، إذ هوأكثر تأثيرا في النفوس من الأسلوب المباشر غالبا، وذلك في المجالات الأدبية، وفي الموعظة، وفي كثير من صور الإقناع، وفي نحو ذلك)[3]

(والغرض الرابع : الإقناع بفكرة من الأفكار، وهذا الإقناع قد يصل إلى مستوى إقامة الحجة البرهانية، وقد يقتصر على مستوى إقامة الحجة الخطابية، وقد يقتصر على لفت النظر إلى الحقيقة عن طريق صورة مشابهة)[4]

ولا يقتصر دور التشبيه على ادعاء المشابهة بين طرفيه، كما يقول بيرلمان (وإنما يرتبط بتشابه العلاقة بين أشياء ما كان لها أن تكون مترابطة)[5]. ذلك أن العلاقة التي يقيمها التشبيه بين طرفيه تنتج عن تصور عميق للأشياء نابع من ثقافة و رؤية، وإذا تعلق الأمر بالخطاب الصوفي فإن ذلك سيكون معبرا عن النهج الذي سلكه هؤلاء القوم، وعن رؤاهم وتصوراتهم، للدين والإنسان والكون.

---

[1] – شكري المبخوت، الحجاج في اللغة،ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطوإلى اليوم إشراف حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية 1،كلية الآداب منوبة،ص361.

[2] – عبد القاهر الجرجاني،أسرار البلاغة،دار المدني، جدة، السعودية، د ط، دت،ص 115.

[3] – البلاغة العربية، أسسها وعلومها وفنونها، ج1، ص167

[4] –م ن،ص 168

[5] – عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير،ط2، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2012، ص9.

قال ابن عطاء الله السكندري : (النور جند القلب،كما أن الظلمة جند النفس، فإذا أراد الله أن ينصر عبده، أمده بجنود الأنوار وقطع عنه الظلم والأغيار)[1] .

فهوهما يقيم مشابهة بين النور والجند، ليبين قيمة النور في تقوية القلب وتزكيته، القلب الذي هو محل الإيمان والمعرفة، وفي المقابل يجعل الظلمة جنود النفس، لأن النفس هي محل الأهواء والشهوات.

كما أن التشبيه قد يأتي بأغراض كثيرة كالتحقير أو السخرية، حين يكون الغرض منه تعديل سلوم المتلقي وحمله على النقيض، بقول ابن عطاء الله السكندري : (لا ترحل من كون إلى كون، فتكون كحمار الرحى يسير والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه. ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون؛ و(أن إلى ربك المنتهى).انظر إلى قوله – صلى الله عليه وسلم — فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[2].

نجد أن المرسل استغل بلاغة التشبيه لعرض فكرته في حقيقة التوجه إلى الله، إذ شبه حال الراحل إلى غير الله سبحانه وتعالى بحمار الرحى الذي يظل يدور في مكانه حول الرحى، وهو ما يشير إلى الإذلال والاحتقار في المشابهة بين ذلك الراحل والحمار، فالفاعلية الحجاجية لهذا التشبيه تستند إلى عاملين مهميين؛ الأول يتعلق بتشبيه الراحل (من كون إلى كون) بالحمار، وهو أمر يدعو إلى السخرية ويحمل المتلقي على الابتعاد عما يوجب إلحاق هذا التشبيه به. أما الثاني يتعلق بالصورة المتولدة عن هذا التشبيه، وانطباعها في ذهن المتلقي، وهو ما يعد دعما للحجة وتقوية لها .

ب–الاستعارة:

إحدى صور البيان وأكثرها استخداما الحجاج وهي (ضرب من التشبيه، ونمط من التمثيل، والتشبيه قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب، وتدركه العقول. وتستفتى فيه الأفهام والأذهان، لا الأسماع والآذان)[3]، فغايتها إبانة ما خفي من صفة وحقيقة المشبه بانتخاب مشبه به تكون الصفة فيه أقوى وأظهر، وتكمن (فعالية الاستعارة في التناسب مع ما يقتضيه السياق، إذ تمثل أبلغ وأقوى الآليات اللغوية)[4]، ولقد عدها بيرلمان مقوما حجاجيا فاعلا في تغيير المخاطب لزاوية نظره ومعتقداته وميولاته)[5]، ذلك أن القول الإستعاري بخلاف التعبير العادي (يؤدي عدة وظائف في عملية التخاطب)[6]، يتداخل فيها الجمالي والحجاجي. وتتمحور الخاصية الحجاجية للاستعارة في نظر طه عبد الرحمن في تداخل آليتي الادعاء والاعتراض.[7]

يقول ابن عطاء :(ادفن وجودك في أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه)[8]

النتيجة : ادفن وجودك في أرض الخمول.

---

[1] – الحكم العطائية:ص56.

[2] – م ن:ص53.

[3] – أسرار البلاغة، ص20.

[4] – إستراتيجيات الخطاب ، ص 496.

[5] – l’empire rhétorique, Librairie Philosophie Vrin, 2002, P.29. Perlman . Chaim

[6] – عندما نتواصل نغير، ص 121

[7] – ينظر :اللسان والميزان، ص 311.

[8] – الحكم العطائية:ص48.

الحجة: فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه.

يحرض المرسل بهذه الاستعارة عقل المتلقي ليقيم هذه المشابهة ويكتشف العلاقة بين الأمرين فيتم الاقناع. وهو هنا يعبر عن معنى لطيف من المعاني الصوفية وهو جمع الجمع. ويعرفه الصوفية بأنه (الاستهلاك بالكلية،وفناء الإحساس بما سوى الله عز وجل عند غلبات الحقيقة)[1]

وهذا ما أراده بـ (ادفن وجودك في أرض الخمول) ليتم له بعد ذلك كما يقول القشيري حالة عزيزة يسميها القوم الفرق الثاني، وهو أن يرد للعبد إلى الصحو عند أوقات أداء الفرائض ليجري عليه القيام بالفرائض في أوقاتها فيكون رجوعا لله بالله تعالى لا للعبد بالعبد)[2].

فللتعبير عن هذه المعاني الصوفية اللطيفة استخدم ابن عطاء الله الاستعارة إذ شبه وجود الصوفي بالشجرة وحذف المشبه به وهي (الشجرة) وجاء بإحدى لوازمه وهي الإنتاج.

ج–الكناية:

الكناية باعتبارها أحد ألوان البيان التي تدعو المتلقي إلى إعمال العقل والنظر في الملفوظ المعروض عليه لإدراك المقصد والمعنى، تكون أحد أهم آليات الحجاج التي يمكن للمرسل أن يعتمد عليها في إقناع المتلقي والتأثير فيه.

يعرف السكاكي الكناية بقوله (هي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروك)[3]، وفي هذا إشارة إلى دور المتلقي في البحث عن المتروك، وهي نوعان قريبة وبعيدة، وهذه فاعليتها الحجاجية أقوى، ذلك أمها (تنتقل إلى مطلوبك من لازم بعيد بواسطة لوازم متسلسلة)[4]، وهو ما يعني أنّ الحجة الواحدة تتضمن حججا متعددة.

ومن توظيف الكناية في كلام المتصوفة، قولة أبي يزيد الشهيرة : (نصبت خيمتي بإزاء العرش)[5]، وهي كناية عن نسبة، فنصب خيمته إزاء العرش إشارة إلى صدق التوجه إلى الله دون سواه، وهو جوهر الإخلاص. على إيجاز هذه العبارة فإنها تستلزم اعتزال الناس، والزهد في الدنيا وما فيها، والتوجه مباشرة إلى الله. وكلها حجج يسوقها البسطامي في بيان حقيقة التصوف وفق رؤيته.

ويحكى أن ذا النون المصري أرسل إلى أبي يزيد رجلاً، وحمله هذه الرسالة: (ذو النون يقرئك السلام ويقول: إلى متى النوم والراحة وقد جازت القافلة ؟ فقال له أبويزيد : قل لأخي ذي النون إنّ الرجل كلّ الرجل من ينام الليل كله، فإذا أصبح آمنا في المنزل قبل نزول القافلة. فرجع الرجل إلى ذي النون وأخبره فقال: هذا كلام لا تبلغه أحوالنا، هنيئاً له)[6] . في هذه القصة الطريفة لطيفة من لطائف الصوفية، و فقد كان الرجلان يتبادلان الرمز والإشارة، وقد فهم كل واحد كناية صاحبه، فقد الأول يشير

[1] – الرسالة القشيرية، ص101.

[2] – نفسه ص101.

[3] – يوسف بن أبي بكر السّكاكي: مفتاح العلوم،ط2،دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان.،1987، ص 402.

[4] – نفسه، ص 405.

[5] – أبويزيد البسطامي، ص49.

[6] – عبد الرحمن بدوي، شطحات الصوفية، ص103.

بالقافلة إلى السير إلى الله والاجتهاد في الطاعات ليحصل القرب، وكان الثاني (أبو يزيد) يشير ببقوله (ينام الليل كله) إلى أنه بلغ مقاما يؤهله لبلوغ مكانة لا يبلغها غيره بالرياضات والطاعات، ولذا قال ذو النون : (هذا كلام لا تبلغه أحوالنا، هنيئاً له).

د–البديع:

إن لكل محسن بديعي فاعلية حجاجية (إذا كان استعماله وهو يؤدي دوره في تغيير زاوية النظر يبدو معتادا في علاقته بالحالة الجديدة المقترحة)[1]، لذا فإن المحسنات البديعية –غالبا– لا تكتفي بأن تكون زخرفة لفظية، يمكن الاستغناء عنها إذ تعمل على إقناع المتلقي بدعوى المرسل واستمالته والتأثير. طالما أن كل عام عامل في النص يسهم في التأثير في المتلقي، ويعمل على جعله يغير موقفه من الملفوظ فهو ذو فاعلية حجاجية، فجميع مكونات الخطاب اللغوية والبلاغية إذ تتعاضد لجعله أكثر انسجاما واتساقا تجعله قويا حجاجيا.

يعتبر الطباق من المحسنات التي تساهم في انسجام الخطاب وهو(الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة أوالخطبة أو البيت من بيوت القصيدة)[2]، وهذا القول ينطبق على الطباق والمقابلة لاشتراكهما للضدية، ولا يخفى ما للضدية من تأثير على ذهن المتلقي، إذ يعمل المعنى ونقيضه في الكلام على بيان المعنى الذي يريده المتكلم .

من ذلك قول ابن عطاء الله:(أرح نفسك من التدبير فما قام به غيرك لا تقم به لنفسك)[3]

يقوم الحجاج في هذه الحكمة على المقابلة بين ما قام به غيرك– ولا تقم به لنفسك. فلقد أراد المرسل أن يبين معنى التوكل، وأن يريح المؤمن نفسه من عناء التدبير لأن الله قد تكفل بذلك.

ومن ذاك قوله أيضا:(حظ النفس في المعصية ظاهر جلي، وحظها في الطاعة باطن خفي، ومداواة ما يخفى صعب علاجه)[4]. لا شك أن تناسق الكلام وتقطيعه إلى وحدتين متقابلتين يخلف أثرا في نفسية المتلقي بما فيه من حسن السبك والانسجام، و يدعوه التقابل بين المعاني إلى إعمال العقل وإبداء موقف من الملفوظ.

كما أنّ الحكمة السابقة قامت على السجع (في النثر، كما في القوافي في الشعر)[5]، ويكاد علماء البلاغة يجمعون على أن البديع إذا ابتعد عن التكلف ووافق المعنى، زاد في تجويد الكلام وجعله أقوى، ومن هذا الباب يكون البديع لأنواعه مما يقوي الحجاج في الكلام، ولقد قامت الكثير من مقولات المتصوفة وخاصة حكم ابن عطاء على التقابل والسجع .

[1] – صابر حباشة:التداولية والحجاج،ط1،دار صفحات للدراسات والنشر،دمشق،سوريا،2008. ص51.

[2] – كتاب الصناعتين، ص238.

[3] – الحكم العطائية:ص47.

[4] – الحكم العطائية ، ص 82.

[5] – السكاكي، مفتاح العلوم،ص 431.

4. خاتمة:

يتبين لنا مما سبق :

– أن المتصوفة نوعوا في إستراتيجياته الخطابية تبعا لمقتضى السياق والمقام ، فقد رموا إلى التأثير في المتلقي وعرض تصوراتهم ورؤاهم وإقناعه بها، ولقد سعوا غاية جهدهم لتبقى تلك الخطابات داخل دائرة التداول، محاوبين تجاوز العقبات والعوائق التي اعترضت العملية التواصلية وسعت إلى تعطيلها، وتبعا لذلك اختاروا الاستراتيجية المناسبة لكل موقف بما يحقق مقاصد المرسل.

–وفي إطار سعيهم للاندماج مع النسق السائد مالوا إلى الكتابة في الأنواع الأدبية الأكثر تداولا (المواعظ والوصايا ..)، ولذا اعتمدوا الإستراتيجية التصريحية مراعاة لحال المتلقين لهذا التوع من الكتابة ولتبليغ مقاصدهم بشكل أوضح وبمنأى عن سوء التأويل.

التعبير عن المعاني الصوفية اللطيفة التي لم تتهيأ اللغة في وضعها الطبيعي للتعبير عنها، و هو ما قادهم إلى اعتماد الإشارة والرمز والمجاز، ومكّنهم عبر مراحل التصوف من إنشاء موسوعتهم المصطلحية .

– ولوعي المرسل الصوفي بالمتلقي وبالظروف المحيطة بعملية التلفظ نراه اعتمد الإستراتيجية الإقناعية في سياقات رأى أنها تستدعي الحجاج، فوظف كل ما تتيحه له اللغة من أبنية وآليات حجاجية بغية التأثير في المتلقي وحمله على تغيير أفكاره ومعتقداته دون فرض أو إكراه.

– لقد أبان المتصوفة عن وعي عميق بالظروف التي تحكم العملية التواصلية، وخبروا المتلقي المحتمل لخطاباتهم، وامتلكوا تلك الحساسية العالية باللغة وأدركوا وظائفها وإمكاناتها مما أهلهم لتكييف خطاباتهم مع ما يقتضيه المقام. وهز ما يفسر تباين مستويات الخطابات الصوفية وتعدد صنوف الكتابة عندهم ن وتنوع إستراتيجياتهم الخطابية .

5. قائمة المراجع:

1. القرآن الكريم .
2. ابتسام بن خراف، الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة، رسالة دكتوراه.
3. ابن عربي محي الدين، رسائل ابن عربي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2001.
4. ابن عطاء الله السكندري،الحكم العطائية، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ج م ع ط1، 1988.
5. ابن منظور،جمال الدين،لسان العرب،ط1،مج02، دار صادر . بيروت، لبنان، دت.
6. أبوبكر العزاوي :الخطاب والحجاج،ط1،مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، بيروت،لبنان، 2010.
7. أبوبكر العزاوي:اللغة والحجاج،ط1،العمدة في الطبع،المغرب،2006.
8. أبوهلال العسكري،كتاب الصناعتين، تح:علي محمد البجاوي ومحمد أبوالفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ط1،2006.
9. أحمد المتوكل، نحو آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة حمد الخامس، المغرب، 1993.
10. أرسطو، الخطابة، ترجمة قديمة، تحقيق : عبد الرحمن بدوي،وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، لبنان، 1979.
11. أزوالد ديكرو، جان ماري سشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان (طبعة منقحة)، ترجمة : د منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، المغرب، لبنان، ط2، 2007 م .
12. الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، تح:عبد السلام محمد هارون، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط،7.

13. الجرجاني علي بن محمد، التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، ج م ع، دط، دت،،
14. شكري المبخوت، الحجاج في اللغة،ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم إشراف حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية 1،كلية الآداب منوبة.
15. صابر حباشة:التداولية والحجاج،ط1،دار صفحات للدراسات والنشر،دمشق،سوريا،2008.
16. طه عبد الرحمن: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط1،المركز الثقافي العربي،بيروت لبنان،1998.
17. عبد الله صولة : الحجاج أطره ومنطلقاته من خلال مصنف في الحجاج الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتكاه، ص 299، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطوإلى اليوم .
18. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، البلاغة العربية ، أسسها وعلومها وفنونها، ج1، ط1، دار القلم، سوريا، الدار الشامية، لبنان،،1996.
19. عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير،ط2، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2012.
20. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، دار المدني، جدة، السعودية، د ط، دت .
21. عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2001.
22. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ط1، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، 2004.
23. عز الدين الناجح : مقاربة تداولية لحكمة حجاجية،مجلة الخطاب،مخبر تحليل الخطاب،جامعة مولود معمري، تيزي وزو،الجزائر،العدد03، 2008.
24. عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية ط1، مكتلة علاء الدين، صفاقس، تزنس، 2011.
25. عز الدين الناجح:الحجاج في سورة الإخلاص،مجلة الخطاب الصوفي في اللغة والأدب،جامعة الجزائر،العدد01، 2007.
26. علي توفيق أحمد:المعجم الوافي في أدوات النحوالعربي،ط2، دار الأمل،إربد،الأردن،1988.
27. عمر بلخير، الوظائف التداولية والحجاجية للاستشهاد، مجلة التبيين، العدد 23، الجزائر، 2004.
28. محمد سالم ولد محمد الأمين مجلة عالم الفكر (مفهوم الحجاج عن بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة .. المجلد 28 / العدد 3، يناير – مارس 2000.
29. يمينة تابتي:الحجاج في رسائل ابن عباد الرندي،مجلة الخطاب،جامعة مولود معمري،تيزي وزو،الجزائر، العدد الثاني،ماي 2007.
30. ينظر : محمد العمري في بلاغة الخطاب الإقناعي . ط2، أفريقيا الشرق، المغرب، لبنان، 2002.
31. يوسف بن أبي بكر السّكاكي: مفتاح العلوم،ط2،دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان.1987.
32. Chaim Perlman . l'empire rhétorique, Librairie Philosophie Vrin, 2002, P.29.
33. *Mariana TUTESCU, L'*Argumentation Introduction à l'étude du discours ,p30.